الأمريكيون قسّموا بلادنا كما يناسبهم ويساريونا انقلبوا طائفيين:

لكي تتوحد مجتمعاتنا يجب الاقرار بالتنوعات الموجودة فيها

محمد شاويش*

■ أريد في هذا المقال أن أدافع عن وجهة نظر تحليلية تقول ان الانقسام الاجتماعي الحاد الذي نراه الآن في بلادنا لم يكن ولن يكون في المستقبل أيضاً أمراً حتمياً ولا بديهياً، وان أسبابه الظاهرة ليست هي الأسباب الحقيقية التي تفسره، وأريد بناء على ذلك أن أنقد ما يراه الكثيرون الآن «بديهيات» تفسر الانقسام الحاصل، ثم أنتقل لوصف ما أراه الوعي التوحيدي الحقيقي الذي يجب أن ينهض كنقيض لنوعين من الوعي: «الوعي المتشظي»، و«الوعي التوحيدي الزائف». ولكني سأبدأ بوصف الواقع كما يتجلى في الوعي الجمعي:

1. فقدان السيطرة على المصير

ثمة نكتة سورية تقول ان رجلاً رأى في طريقه قشرة موز فقال: «أعاننا الله على هذه الوقعة!». و يذكّر بهذه النكتة ذعر المجتمع السوري من تدخل أمريكي، يسقط النظام ويفضي الى حالة مأساوية من التناحر الداخلي الدموي والفوضى الأمنية تشبه حالة المجتمع العراقي الآن.

وشر المصيبة ما يضحك!.

تماماً مثل الرجل في النكتة الذي آمن أن التزحلق بقشرة الموز حتمية لا يمكن تجنبها، وغاية ما يستطيع فعله أن يدعو الى الله أن يعينه على تحمل نتائج هذا التزحلق، يرى المجتمع نفسه غير قادر على منع فعل تدميري لن يكون بصورة جوهرية غير فعله هو، بنفسه وضد نفسه، فكأنه ينظر الى ذاته الجمعية وقد فارقته وصارت خصماً له. ان هذا هو شكل كامل من أشكال الاستلاب، ولم يكن من الممكن تصور هذا الكمال في الاستلاب لولا كمال شكل الاستعباد الذي وصل اليه المجتمع السوري في نهاية الثمانينات، حين فقد نهائياً كل تعبير ذاتي جماعي مستقل، وتذرر الى ذرات منفردة، وأصبحت السلطة (لا الدولة) هي القوة المنظمة الوحيدة التي يقف ازاءها المجتمع لا بوصفه ذاتاً جمعية متحدة (شأن المجتمعات العادية، بل شأن الدكتاتوريات العادية) بل بوصفه مجموعة من الأفراد المفتقدين كلياً لكل ارادة وشخصية مستقلة. وبنتيجة ذلك لم يعد لدى المواطن شعور بأنه يستطيع المساهمة بأي شكل بتقرير مصيره، وهو يستبطن الاعتقاد المرير (الذي سميته في كتاب قديم «الاستلاب التغلبي») أن كل ما يقع له انما يأتي من قبل قوى هو حيالها عاجز كلياً، فهي ذات قوة لانهائية على حين أن قوته صفرية.

والسلطة المصابة بمرض فرط التسيس الذي أصيبت به المعارضة أيضاً تشجع هذا الاعتقاد المستبطن وتحول بالقوة دون أن يتراجع أو تتزحزح جذوره حين تطارد بوسوسة مطلقة كل مبادرة مجتمعية ذاتية (حين حاول طلاب ثانوي تنظيف شارع بمبادرة ذاتية اعتقلوا وحقق معهم!).

لكن الشعور بفقدان السيطرة على المصير لا يقتصر على المجتمع السوري، وأعتقد أن كثيراً من الغيورين في مجتمعنا المنكود من المحيط الى الخليج قد وقفوا حائرين مثلاً ازاء تلك الحادثة الغامضة التي قام فيها شخص ما أو أشخاص لا نعرف عنهم شيئاً بالهجوم على مصلين في كنائس قبطية في الاسكندرية، ولا يتركنا الكذب الواصل الى درجة العهر الذي تعودناه من أجهزة اعلام الأنظمة العربية نثق بصحة المعلومات التي أذاعتها وسائل اعلام ذلك البلد العربي الأساسي، مصر واسطة العقد وأم الدنيا العربية، التي لا ترتجى للعرب نهضة حقيقية ان لم تنهض هي من كبوتها الطويلة. نحن لا نعرف من فعل هذه الفعلة وكيف، واذا كنا لم نعد نعرف ماذا يجري بين ظهرانينا فهذا تعبير عن الدرجة القصوى من فقدان السيطرة على المصير.

وهذا ما وجدناه في العراق، فقد قرأنا في البداية رسالة أذاعها الأمريكان باسم شخص اسمه أبو مصعب الزرقاوي يعلن فيها شن حرب على الشيعة، وبالفعل بدأت بعدها الحرب فوراً بهجمات وحشية غريبة طائفية الطابع لم يشهدها تاريخنا الطويل، تماماً كما أن تاريخنا الطويل في مصر لم يشهد، ربما منذ عهد عمرو بن العاص، أن شخصاً يقتل مصلين مسيحيين في كنائسهم.

2. في نقد «البديهيات»: هل الطائفية أمر بديهي؟

أصبحت اللغة الطائفية «لغة بديهية» نراها «تعبيراً بديهياً» عن «واقعة اجتماعية»، فما دام هناك طوائف، وفقاً لهذه «البديهية» فلا بد من وجود طائفية!. مع أن الذين يرون الأمر بديهياً لا يفسرون لنا لماذا لم يكن الحال هكذا سابقاً مع وجود طوائف وأديان ومتدينين.

«البديهية» قد لا تكون بديهية في النظر العلمي الموضوعي، حتى لو بدا أن الواقع يؤكدها، فقد مر زمن كانت فيه الماركسية الثورية تملأ العالم وتقود ثورات كبيرة تهز البنيان الاجتماعي، وفي ذلك الوقت بدا التأثير الماركسي بديهياً انطلاقاً من رؤيتها هي بالذات، فهي تتكلم عن صراع الطبقات، فهل يشك أحد بوجود طبقات في المجتمع؟ اذن فمن المنطقي أن الطبقات الكادحة سوف تسمع التحريض الماركسي وتنساق وراءه! وقد حصل هذا فعلاً، لكنه كان موجة وانتهى، والآن بقيت الطبقات لكن التحريض الماركسي ما عاد يهتم به أحد فما الذي جرى للبديهية القديمة؟ وبالذات في بلادنا التي تشكو من حالة افقار متزايد، أي من حالة كان الحكام والثوريون الشيوعيون معاً في نهاية الستينات ومطلع السبعينات يرونها حالة نموذجية لاندلاع صراع طبقي في المجتمع، لماذا لم يعد حكام العرب يرون في الشيوعية خطراً كما كانوا يرونها في مطلع السبعينات؟

ان التطبّق (أو التشرّح) الاجتماعي هو ظاهرة معقدة، وهو ينتج أشكالاً من الصراعات الاجتماعية تختلف باختلاف نوع الهوية التي تقسم المجتمع في وقت من الأوقات، فالهوية الكاثوليكية والبروتستنتية ظلت عقوداً طويلة تقسم ايرلندا الشمالية على حين أنها منذ قرون لم يعد لها أي دور تقسيمي في الولايات المتحدة أو ألمانيا مثلاً، ان وجود اختلاف في الهويات في المجتمع لا يعني الصراع كأمر بديهي، ذلك أن المجتمع يمكن أن نقسمه بخيوط وهمية بلا حدود، فهو نفسه قد تقسمه على أساس قومي أو طبقي أو عشائري أو مهني أو حتى على أساس الاهتمام بالرياضة! الى آخره، ومن الخطأ الشائع أن ننظر الى التقسيم الذي يسبب في زمن معين صراعاً على أنه هو حقاً السبب في الصراع، حتى ولو خيض الصراع باسمه وكان هذا ما هو موجود في وعي القائمين عليه.

لم يكن الصراع في نظام التفرقة العنصرية المندثر في جنوب أفريقيا ناتجاً عن «كراهية عرقية» بين البيض والسود، وان كان تسعة وتسعون بالمائة من فريق سود البشرة وتسعة وتسعون بالمائة من الفريق الآخر بيضاً، فالانقسام كان من نوع معقد، طبقي وثقافي وقومي، بل دخلت فيه عناصر تخص مجتمع السكان الأصليين حين رأينا الموقف الخاص الذي وقفته حركة الزولو «انكاتا» متحالفة مع النظام ضد المؤتمر الوطني الافريقي.

ولأضرب لأصحاب «نظرية البديهية» كما يمكن أن أسميها مثالاً من مجال اجتماعي – سياسي مختلف: ما رأيكم في ظاهرة سيطرة العسكر على السلطة؟ ألا تنتج «بديهياً» من كون الجيش هو القوة المسلحة المنظمة الوحيدة في كل دولة حديثة! ووفقاً «للمنطق» الذي لا أشك أن كثيراً جداً من مواطني البلاد التي يحكمها عسكر سيوافقون عليه ليس الغريب أن يحكم الجيش، بل الغريب أن لا يحكم وهو يستطيع (وفق «توازنات القوى»!) الحكم.

فلم اذن يا سادة لا يحكم الجيش في بريطانيا وفرنسا وهو «أقوى» بكثير من الجيش الباكستاني مثلاً!

هذا مثال على «البديهيات» المضللة.

لأجل أن نرى سبب الواقعات الاجتماعية يجب علينا أن ننقد أنفسنا بصورة صارمة في كل خطوة من خطوات تحليلنا، وبالذات ينبغي أن نضع في أذهاننا أن ما يبدو بديهياً قد يكون مجرد تفسير تافه من نوع تفسير الماء بالماء، أي تفسير الوقائع الاجتماعية بوجودها ذاته، والحال أن «السبب» ليس هو «الواقعة»: الطائفية لا يجوز تفسيرها بوجود الطوائف مثلاً، والصراع الاثني لا يجد تفسيره في وجود اثنيات. كما أن مجرد وجود لونين للبشرة في جنوب أفريقيا (كان هناك هنود أيضاً) لا يكفي وحده لتفسير الصراع الذي سمي «صراعاً عرقياً».

وما نراه في مجتمعنا الكبير يؤكد تجريبياً ما تقدم، ذلك أن ما هو واقع عندنا هو تشظي المجتمع أما وعي الناس الذين يسلكون مسلك تقسيم المجتمع فيجب النظر اليه بروح نقدية لا روح مصدقة مصادقة، اذ أن «المضمون الظاهر» (التعبير استعرته من فرويد الذي يفرق في تحليله للأحلام بين «مضمون ظاهر للحلم Manifester Trauminhalt ومضمون كامن Latenter Trauminhalt) لأسباب الصراع لا يمكن لنا أن نقبله على أنه «الحقيقة» ما دمنا نرى «الأسباب» مختلفة مع اتحاد «النتيجة»: هناك طائفية في العراق ولبنان ويخشى منها في سورية أيضاً، وهناك مناطقية واقليمية في فلسطين والأردن، وفي المغرب العربي ثمة صراع بين الاسلاميين والعلمانيين كما ثمة صراع اثني يعمل العاملون على تأجيجه بين العروبيين وذوي النزعة الأمازيغية، أما الصومال الذي يتمتع بصفاء قومي وديني وطائفي ومذهبي نادر اذ هو بلد كل سكانه صوماليون لهم لغة واحدة ودين واحد هو الاسلام وطائفة واحدة هي الطائفة السنية، بل هو من مذهب واحد فيما أعلم هو المذهب الشافعي، فانه وقد اختفت فيه «الأسباب البديهية» للصراع وجد «أسباباً بديهية» غيرها ليتحول الى نموذج للتذابح الداخلي فاق فيه كل نموذج آخر!

3. كيف ننظر الى انقسامات المجتمع؟

جاء الأمريكان الى العراق مستصحبين معهم مفهوماً لمجتمع هذا البلد الذي غزوه، وهذا المفهوم ليس مأخوذاً من عالم علم الاجتماع الغربي المعقد ذي المدارس الكثيرة، بل من عالم ذلك الاتجاه البحثي الذي هو الاستشراق، والذي أبدع ادوارد سعيد في وصف سكونيته ودوغمائيته الراسخة التي لا تتمتع بأي قدر من المرونة، فكأن البحث لا يغدو بحثاً بالمعنى المعروف للكلمة، بل يغدو شأن أي محاججة لاهوتية كاثوليكية «فعل ايمان»!.

فعل الايمان هذا يناسب خصوصاً التوجه الاستعماري، فالمعرفة لا تقصد لذاتها بل لخدمة علاقات السلطة التي يراد فرضها، والمجتمع لا يوصف انطلاقاً مما هو عليه، بل انطلاقاً مما تريد له القوة المستعمرة أن يكون عليه، ومن هنا غمقّت الخطوط التقسيمية التي يراد للمجتمع العراقي أن ينقسم على أساسها، وفتّحت (بتشديد التاء الأولى) الخطوط التي يراد غض النظر عنها بهدف طمسها في الوعي ان لم يمكن طمسها في الواقع! (ربما نرى في القريب العاجل حالة ايرانية معاكسة لحالة العراق، ففي العراق جعل الأكراد أكراداً لا سنة! أما العرب فلم يعترف بوجودهم كعرب بل جعلوا سنة وشيعة، الآن ربما ترى الولايات المتحدة من المناسب أن تجعل من أهل الأهواز عرباً غاضة النظر عن كونهم شيعة! وتجعل من الآذربيجانيين آذربيجانيين غاضة النظر أيضاً عن كونهم شيعة حيث أن «الهويات المفيدة» هي دوماً الهويات التقسيمية التي تفيد خطة «الفوضى الخلاقة»! ولو كان من المفيد جعل الهوية القومية الكردية «فاهية» لغمقت «الهويات» الصورانية والكرمانجية وجعلت قوميات مستقلة، بل لغمقت الهوية الطائفية «للأكراد الأفيلية» الشيعية، ولا بأس لاحقاً من توثين الاقليمية الكردية فيتعصب الكردي التركي لكرديته التركية كما يتعصب عندنا اللبناني للبنانيته والأردني لأردنيته والفلسطيني لفلسطينيته!، ناهيك عن الانقسام الموجود أصلاً بين «بارتي» و«اتحاد وطني» في كردستان العراق).

وان كان لتلاميذ برنارد لويس هؤلاء مصلحة في ذلك، فانني لا أرى مصلحة لنا، نحن الذين لا نريد لأوطاننا أن تغرق بدم الصراعات الطائفية والاثنية أن نتبنى وجهة النظر الوحشية هذه.

الواقع الاجتماعي عندنا هو أغنى بكثير وأكثر ملاءمة لصيغة وحدوية طوعية من صيغة هؤلاء.

من الأمور التي ميزت معظم القوى السياسية العربية أنها لم تنطلق في ممارساتها من تصور دقيق واضح للبنية الاجتماعية التي تعمل من خلالها، ومن المفارقات في هذا المجال أن السلطة التقليدية في المجتمعات العربية كانت أقرب لفهم تنوعات المجتمع الفعلية وخطوطه وألوانه في تعقيدها الواقعي بلا تجريدات نظرية أو أيديولوجية (مثلاً في ملكيات مثل الأردن والمغرب) من القوى السياسية العربية بألوانها الأيديولوجية، سواء منها تلك التي حكمت أم التي لم تحكم.

ومما لا ريب فيه أن رؤية كل قوة سياسية للبنية الاجتماعية تتعلق بمنظومتها الفكرية، والمشاهد أن القوى ذات التوجه الديني تهتم بموقف شرائح المجتمع من توجهها الديني، والقوى اليسارية اهتمت طويلاً بالتركيب الطبقي للمجتمع، أما القوى القومية فيهمها التركيب القومي للمجتمع، لكن ما يجمع هذه القوى معاً هو أنها لم تنظر الى المجتمع نظرة واقعية براغماتية تأخذه بحاله وتبني على هذه الحالة خططها، كما تفعل مثلاً الأحزاب السياسية في المجتمعات المستقرة سياسياً التي هي اجمالاً الدول المتطورة صناعياً، بل نظرت كلها الى الحالة الراهنة للمجتمع على أنها من جهة حالة مؤقتة ومن جهة أخرى على أنها حالة مدانة يجب تغييرها، وكان لا بد لأسباب أيديولوجية أن تغض هذه القوى النظر عن الوقائع التي لا تتناسب مع منهجها في الطرح أو لا تعدها «حقيقية» أو «أصلية»، من ذلك مثلاً أن التوجه الاقليمي عند بعض قطاعات السكان نظر اليه من قبل الأحزاب القومية على أنه مرض اجتماعي، ونظر القوميون واليساريون معاً في الستينات والسبعينات الى الطائفية على أنها مرض مؤقت للجسد الاجتماعي العربي، أما الواقعة الطبقية فلم تلفت انتباه الاسلامانيين منذ بداية الخمسينات بعد أن اصطدموا بالقوى المتوجهة اشتراكياً، وصار تركيزهم منصباً على التحولات الاجتماعية من منظور أخلاقي جزئي هو منظور ذلك الجزء من الأخلاق الاجتماعية المتعلق مثلاً بالعلاقة بين الجنسين.

ان كنا نريد وعياً اجتماعياً توحيدياً، فان علينا بعد هذه التجربة الطويلة أن لا ننبي تصورنا لتركيب مجتمعنا على أساس انكار التقسيمات التي لا تعجبنا وابقاء ما يعجبنا منها، بل علينا أن ننبي هذا الوعي على أساس تصور شامل للتركيب الاجتماعي، وشمولية التصور خلافاً لما يعتقده الفاعل الأيديولوجي لحد الآن لا تفرق بل توحد، وهذا لسببين:

أولاً: لأن الوعي الوحدوي يجب أن لا يبنى أصلاً على اعتبار الهويات المعقدة التي ينتمي اليها أفراد المجتمع أسباباً للتفرق السياسي، بل يجب للوعي الوحدوي أن يبنى على الايمان بمزايا الوحدة ومساوئ التجزئة، وهذا ما وحد أوروبا التي لا تنكر أنها مركبة من مجموعة معقدة من شتى أنواع الانتماءات والهويات، بل هذا ما يوحد الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا أيضاً.

ثانياً: لأن الاقرار بكل الهويات والانتماءات التي تركب المجتمع، يجعل من الصعب على هوية واحدة أن تقسم المجتمع، ذلك أن الهويات الأخرى ستخفض بشدة من تأثير تلك الهوية، و«تفتّح» الخطوط التي تحدثها في الجسد الاجتماعي وتجعلها «فاهية» لا «غامقة».

ولأضرب مثلاً على هذه الفقرة الثانية: ان من المألوف عندنا لحد الآن أن نتحدث عن تقسيمين لمجتمعنا: التقسيم الطائفي، والتقسيم القومي.

لكننا لو درسنا السلوك الاجتماعي بالملموس لشرائح مجتمع كالمجتمع السوري مثلاً لرأينا مباشرة تقسيماً ثالثاً هو في اعتقادي لا يقل أهمية عن هذين التقسيمين، ألا وهو التقسيم الى شريحة سكانية مدنية وشريحة سكانية ريفية أو من أصول ريفية.

ومن ملاحظاتي الشخصية أن سكان مخيم اليرموك (معظمهم لاجئون فلسطينيون من أصول ريفية) كانوا دوماً يتعاملون بتفهم تلقائي مع السوريين القادمين من أرياف بعيدة أكثر مما يتعاملون بتفهم مع الدمشقيين العريقين، حتى لو كان الأخيرون في كثير من الحالات متوافقين في المذهب الديني معهم بخلاف كثير من القرويين.

بل ان أهل القرى من حوران أو السلمية أو مصياف أو جبال الساحل ثمة مشتركات في سلوكهم الاجتماعي، مثلاً في موضوع الاختلاط بين الجنسين، وفي اعتقادي أن الفصل الصارم بين الجنسين في سورية ومصر كان دوماً خاصية مدنية، على حين كان الاختلاط صفة ريفية، وبغض النظر عن الدين، فقد كان المسيحيون في المدن أيضاً يتبنون مبدأ الفصل على حين أن المسلمين وغير المسلمين في الريف كان الاختلاط نظامهم المعتاد ويحتاج تفسير ذلك لبحث مفصل لا أعلم أن أحداً قام به، وربما كانت قواعد الفصل الصارم والحجاب بأشد أشكاله تشدداً، أي بتغطية الوجه ظاهرة تخص مدننا القديمة وقد يكون لنشوئها علاقة بظروف أمنية مضطربة ميزت المدن في العصور المتأخرة، وانعكاس هذه الظروف واضح في نظام الحارات في المدن التي عملت ضيقة قابلة للسد فكأنها قلاع قابلة للاغلاق.

ولو درسنا تاريخ سورية في القرن الأخير لرأينا هذا الانفصال بين الريف والمدينة واضحاً في الأدب والأيديولوجيا، وقد تميز نصف القرن الأخير بتحول السلطة من «المدنيين» الى «الريفيين»، لكن المشكلة الآن التي يراها كل مراقب محايد ليس عنده انحياز وأفكار مسبقة، أن الطابع الطائفي لبعض الاتجاهات الفكرية السورية (بالذات من كانوا في أقصى اليسار) جعل هؤلاء طائفيين ضمناً وان كانوا في الظاهر علمانيين متعصبين، وعداؤهم للسلطة التي كانوا منذ مدة قريبة في سجونها يجعل عداءهم للأغلبية السكانية لا يأخذ شكل تضامن مع السلطة بل شكل مناصرة للاحتلال الأمريكي في العراق وأمل في امتداده الى سورية، لأن الأمريكان هم الذين سيجلبون بآن واحد لا خيرات الديمقراطية فقط (وفي اعتقادي أن هؤلاء يمكن لهم أن لا «يتشددوا» في شأنها كما لم يتشدد استئصاليو المغرب العربي في شأن الديمقراطية ودعموا أكثر الجنرالات قمعية ضد الأكثرية الانتخابية)، بل سيجلبون، وهذا عندهم أهم.. العلمانية! ومن هنا وجدنا هؤلاء الذين كانوا في عام 1990 ينعون على السلطة وقوفها مع التحالف الذي قادته أمريكا في «حرب تحرير الكويت» ينعون عليها الآن على العكس أنها «تتملق عواطف الأغلبية» وتقف ضد الاحتلال الأمريكي للعراق!.

4. خاتمة: مجتمع متشظ أم وعي اجتماعي متشظ؟

والآن لألخص ما أردت قوله في هذا المقال: ان مجتمعنا مثله مثل أي مجتمع آخر ينقسم بطرق لا نهاية لها الى خطوط وهمية، وهذا الانقسام هو في الأصل طبيعي وليس من شأنه بالضرورة أن يكون سبباً في الصراع والتشظي.

التشظي يمكن لنا أن ننظر اليه لا على أنه نتاج للتركيبة الاجتماعية (كما هي «البديهية» الزائفة التي حاولت أن أظهر خطأها) بل على أنه نتاج للوعي المتشظي، الذي يصر على رؤية انقسام واحد، ويريد أن يجعله سبباً للتقسيم.

ونقيض هذا الوعي هو «الوعي التوحيدي» الذي يرى المجتمع في غنى خطوطه، ويرى أن هذه الخطوط لا تعوق الوحدة لأن الوحدة خيار وليست معطى مسبق محدد الزامياً عبر التركيبة المجتمعية، هذا الوعي هو فقط في اعتقادي ما يمكن أن ندعوه «الوعي الوطني» بأكمل صوره..

وهذا «الوعي التوحيدي» مختلف عن «الوعي التوحيدي الزائف» الذي يقوم على انكار التنوعات الموجودة للوصول الى وحدة زائفة فيها «مسكوت عنه» أو بالأحرى «مقموع» سيظهر شأن كل مكبوت حين تتاح له الفرصة أو يستثمره غاز طامع.

* كاتب من فلسطين يقيم في برلين

برلمان شارع مريدي!

جمال محمد تقي*

■ في حي الثورة، الصدر حاليا، يقع شارع مريدي، وهو طريق شبه معبد، في حي شعبي مكتظ بالسكان، ملامحه تشبه والى حد بعيد، شوارع مخيمات غزة.

لم يسبق لي ان رأيته، لانني كنت من سكنة حي الحرية، البعيد نسبيا عنه، فالحرية تقع شمال غرب بغداد، وفي جانب الكرخ منها، اما شارع مريدي فهو في وسط حي الثورة الذي يقع شمال شرق بغداد، وفي صوب الرصافة منها، وبينهما ينساب دجلة متعرجا يحتضن البطينين.

في نهاية عام 1976 تعرفت عليه ورأيته، وذلك بسبب عملي الحزبي المتنقل، فقد كلفت بمسؤولية العمل الطلابي الشيوعي في حي الثورة، وكان للتنظيم خلية، بعض اعضائها يسكن بيوت شارع مريدي، وحصل اتفاق على ان اجرى اشرافا روتينيا على احد اجتماعاتها، وحتى اصل الى البيت المقصود لا بد من دليل، وفي مثل هذه الحالات عادة ما يكون مسؤول الخلية هو من يرافق الرفيق المشرف الى مكان الاجتماع لانه سبق وان تعرف عليه، وكان موعد اللقاء به عند محطة وقوف الباصات قرب منطقة تدعى السفارة، اعتقدت حينها انها منطقة متميزة بشيء ما، يعطيها نوعا من الشياكة التي تستدعي تسمية السفارة، لكنني فوجئت بانها مربط فسيح للحمير وبغال وخيول النقل، اي انها مركز لسفارتها، حيث تزدهر في فروع هذا الشارع مهنة سياقة عربات الحمل والنقل التي تجرها دواب لها مكانتها بين البيوت.

المهم جاء الرفيق المعني وسلكنا طريقا ملتويا نحو البيت، وكان بيتا بحوش كبير فيه عدد من الغرف الصغيرة اكبرها تسمى الديوانية اي غرفة الجلوس وهي ايضا غرفة الضيوف، كان اهل البيت في منتهى الطيبة، وكانت الخلية من 7 رفاق اغلبهم في الصف المنتهي من الدراسة الثانوية، انهم متحمسون، وتتلمس في اقبالهم على العمل الحزبي نوعا من كاريزما المبادىء عليهم، وهم مقتنعون بانها تميزهم عن سواهم من الدهماء!.

اسرد هذه الحكاية لاذكر حالة احدهم، فقد قدم تقريرا خاصا عن الوضع الاجتماعي لسكان الشارع، كعينة دراسية لكل اوضاع حي الثورة، حيث اكد التقرير على اهمية ولوج تفاصيلها للتأثير عليها بما يخدم قضايانا الاساسية في التنوير ومعالجة تركة التخلف الاجتماعي وانعكاساتها العملية الضارة، لقد اصر الرفيق بلباقة وحضور واثق على طلب الوقت لشرح محتويات تقريره، رغم انه لم يكن على جدول اعمال الاجتماع، وامام قوة اقناعه، تم له ذلك.

لقد ذكر في تقريره تفاصيل ومفردات لم تكن متداولة كثيرا بيننا نحن الشيوعيين وقتها مثل: الفصل، الجرش، النهوة، العطوة، العراضة، كصة ابكصة، مجالس الحل والربط، الافخاذ، الرأس، وغيرها من مفردات القاموس العشائري الاخذة في الانزواء وقتها رغم ان هرمونها ما زال متنفذا على مساحة شاسعة من مختلف مناطق بغداد ذات الانحدار الريفي.

لفت انتباهي اشارته الى امكانية ان يلعب الرفاق دورا متميزا في جلسات الحل والربط التي تجري عند الحاجة لها بين وجوه العشيرة وافخاذها وبيوتاتها ذات الحظوة، وايضا اعطاؤه مثلا على نفسه، وكيف اصبحت له كلمة مسموعة في جلسات الحل والربط لمنطقة مريدي كلها، وانه استطاع تمرير كثير من الحلول العادلة والمنصفة التي تنسجم مع توصيات الحزب.

لقد اعطى بتقريره اطارا للعمل ايضا، حيث اكد على ضرورة تعزيز الثقة بين اطراف هذه الجلسات والبحث دوما عن حلول ذات مضامين معقولة ومقبولة ضمن معادلة متوازنة بين الانفاس العشائرية والدينية والمدنية والاخلاقية، على ان يكون الرفيق المعني نموذج لاسرته ولجيرانه ومنطقته في السلوك المتوازن بين الواقع والطموح.

لقد شرح معاني مفرداته الغامضة علينا، ومنها مفردة «الرأس» وقال ما معناه انها الرأس العادية، وهي معيارية، فهي حسبة اولية للمعادلات القيمية اجتماعيا وعينيا، وقد اوضح ان كل عشيرة تزن بعدد رؤوس افرادها من الرجال، ولكل راس دية عند الفصل، فقتل الرجل له دية مختلفة عن دية المراة المقتولة مثلا وهكذا، والدية ذاتها تختلف باختلاف الحادثة ومكانة صاحبها، لكن هناك معدلا للدية العادية، ما بين 3 الى 9 من رؤوس البقر او الجمال او ما يعادل قيمتها من الاغنام او النقد، كل شيء يقاس ويحسب بالرؤوس، فبيت حجي محيبس لهم 40 راسا من الرجال وهم يتمتعون بحظوة اكبر من بيت زاير جمعة الذين لهم 25 راس رجل.

كل شيء يقاس بالرؤوس حتى لو كانت فارغة، ومن هذا المنطلق انطلق الرفيق الى حساب اخر للرؤوس بحيث يكون كل راس شيوعي مؤثر وحكيم في هذه المجالس يعادل 10 رؤوس من الفارغات، ففي المجالس يكون الراي السديد هو السائد وهذه المجالس برلمانات شعبية يجب اقتحامها بالرؤوس السديدة، واذا دخلناها يجب ألا نكون فيها مثل ذلك الذي دخل موسم الحصاد بمنجل مكسور!؟

لقد انجذبت وقتها لحماس الرفيق، وخرجنا بتوصية تشجع على هكذا توجه وحسب القدرة.

«رباط السالفة» او مربط الفرس في ذكري لهذه التفاصيل هو الحالة المزرية التي يعيشها العراق ومنذ احتلاله، ومع ذلك يقال ان هناك برلمانا، فأين هو؟ الا يفترض ان يكون فاعلا، كما في برلمانات العالم والناس الحقيقية، ام هو «حديدة عن الطنطل، او خراعة خضرة» الا يفترض بنوابه ان يكونوا من اصحاب الرؤوس غير الفارغة في برلمان عراقي منتخب ودائم ومتكون من 275 رأسا من الرجال والنساء وفي بلاد تعصف بها الرياح من كل اتجاه، فهل فعلا هناك برلمان عراقي حقيقي يمثل الشعب؟

برلمان، اسمه بالحصاد ومنجله مكسور:

لا نناقش مدى صدقية ونزاهة وشرعية الانتخابات التي طبلوا وزمروا لها والتي انجبت هكذا برلمان مقعد ومشوه واسير ويبحث عن تقاعده قبل دخوله الخدمة، ولا نحن بصدد مناقشة اليات عمله المستنبطة قلبا وقالبا من الروح البريمرية المتجسدة في قانون ادارة الدولة والتي رحلت بكل عللها مضافا لها تكريس ـ لديمقراطية ـ الخصخصة والتقاسم الاقطاعي المتخلف والمحاصصة المفتعلة على حساب الوطن والمواطن، الى الدستور الدائم وغير الملائم لشعب يعتز بوحدته وتجذرها الحضاري وقوة دولته وانتمائها الاصيل وغير القابل للقسمة لمحيطه العربي والاسلامي، ولا نريد تناول المساحة المتاحة له في قدرته على الفعل الحقيقي عندما نراه مكتفا بقوانين واليات تصويت واعراف غريبة وتناقضات تعكس ارادة المنشيء في جعله «حايط انصيص» وملبي طلبات عند الطلب، انما نناقش من يعتقدون انهم دخلوه كي يستطيعوا تغيير ما رسم له، كيف تفعلون ذلك وحسبة البرلمان كحسبة مجالس الحل والربط في شارع مريدي اي ان الحساب حساب رؤوس بمعزل عن كونها فارغة ام لا؟ بل ان مجالس شارع مريدي اكثر قدرة على الحل والربط من برلمانكم لان فيها امكانية لسيادة الراس السديدة على اصحاب الرؤوس الكثيرة الفارغة، وذلك لان هناك حوارا بينهم، فهل يتحاور النواب، ام يتحاور شيوخ عشائرهم وما عليهم هم الا رفع الايادي! ان البرلمان والنيابة عن الشعب تعني الحوار لاصدار مراسيم وتشريعات تخدمه، واخر اجراء قياسي لفاعلية تفاعل الحوار هو التصويت، هل ناقش النواب شيئا ام انهم امعات فقط؟ وعندما سيناقشون ما هو الهدف؟ اليس الهدف هو خدمة شعب العراق في وحدته الواحدة؟ ام ان منطق القوي ياخذ «الرجيج» الضعيف هو الحاكم؟

تبادل عادل المواقع مع ابراهيم ام لم يتبادل، جاء قاسم داوود ليحل محل صولاغ ام بقي صولاغ، تم تشكيل مجلس الامن القومي ام لم يشكل، راح جلال او جاء مسعود، صعد زيد ام نزل عمر، ليست هذه مشاكل البرلمان وليست هذه رسالة البرلمان في وضع تنهار فيه البلاد، البرلمان يرسم ويتناول الجوهر والاسس، السيادة والاستقلال، والتحكم بثروات البلاد، يتناول الخطوات التي تعجل ببناء جيش قوي بالاستناد الى اهلية الجيش الوطني الذي استبعده الاحتلال، يناقش تشكيلا فوريا لحكومة انقاذ وطني محايدة، يناقش دعوة المقاومة الوطنية لمائدة حوار جاد بضمانات وطنية هدفها انهاء الاحتلال وتطبيع الاوضاع بانتخابات نزيهة تحت اشراف محايد، بعد مرحلة انتقالية تدخل فيها المقاومة الوطنية كطرف اساسي لعودة الامن والاستقرار الى ربوع الوطن، بدون كل ذلك سيكون دور النواب في مجلسهم البرلماني هذا كدور محمد العريبي ايام مجلس النواب الملكي عندما كان يلخص دوره بكلمة واحدة لا غير «موافج» اي موافق، وحتما كان برلمان شارع مريدي اكثر مصداقية وقدرة على الفعل من برلمان، مفاتيح رؤوس نوابه بيد المندوب السامي المتربع على ديوانية المنطقة الخضراء، التي تستضيف مجلس ـ الشل والخبط ـ غير الدائم، ما دام هناك من له رأس غير فارغة، في عراق اشد ما يمقته من اصناف البشر، اصحاب الرؤوس الفارغة!.

* كاتب من العراق

رهان الديمقراطية في التجربة الموريتانية

عادل الحامدي*

■ السوداوية من ذوات الأرحام باليأس واليأس خواء في الأرواح وثلمة في صرح الايمان وما أجمل وأجزل وأبلغ كلام خاتم الأنبياء والمرسلين وهو القائل: بشروا ولا تنفروا. ولكن الحديث في الشأن العربي يتأبى على كل لبيب أن يذكره دون اثارة المواجع وايلام نفوس الكرام، فبم سيبشر من على نفسه تقريب واقع الحياة الى الأذهان وقرع الآذان بالكلمة الطيبة والمسؤولة ومن ثم محاولة فهم عجز الشعوب وقعودها غير طاعمة ولا كاسية في سجون العجز والخوف والعفوية المقصودة واللامبالاة والأنانية فضاعت بذلك أوطان وماتت أمم وبادت حضارات بمثل هذه الصغائر.

وما حاضر العرب الا خير دليل على هذه المزاعم رغم امتلاكهم لأعظم محرك في التاريخ البشري وكفى بالوحي المنزل شهيدا: «كنتم خير أمة أخرجت للناس». وما زاد الطين العربي خمجا هو ظهور صراع البربريات الذي خلناه ولى الى غير رجعة فلم يبق بيت في المعمورة الا دخله دخن كالليل مظلما ظاهره حضارة وباطنه صراعات دينية نتنة لفظتها جميع الأديان وعافتها أذواق الشعوب. ظواهر عرتها حروب العراق الطاحنة من دون أن تترك للستر منها شيئا وهي على بشاعتها يراها قسم من علماء الاجتماع من افرازات التقاء الثقافات من غير ميعاد ولا تنسيق وفي غياب شبه كامل لحكماء البشرية ذوي العقول النيرة. ومع ذلك فان حط الرحال بالديار العربية الموريتانية الكريمة التي يعيش سياسيوها منذ ما يقارب العام على نخب الخطوات الديمقراطية ووعود الانتخابات الحرة النزيهة وأحلام الحرية والخبز والرفاه بعد أن كلت السواعد وبحت الحناجر، مريح هذه الأيام لأن طموحات التأسيس فيه لحياة ديمقراطية حقيقية تبدو كبيرة فالطريق دائما أبهى من الوصول حتى أن أبلغ ما كتب في التاريخ البشري قيل في الطريق الى الأهداف الكبرى.

كما تعلمون تقع موريتانيا المغاربية المسلمة على ضفاف الصحراء الكبرى لافريقيا من الجنوب وعلى الساحل الأطلسي لجهة الغرب. يعمرها ثلاثة ملايين فقط من السكان رغم أن مساحتها تفوق المليون كلم مربع أغلبها صحارى لغتها الرسمية عربية والفرنسية لسانها الثاني واستقلت عن الاستعمار الفرنسي في مطلع ستينات القرن الماضي. في الثالث من آب (أغسطس) الماضي قاد محمد أولعو ولد فال انقلابا ناجحا ومفاجئا على «سيدنا» معاوية الذي كان يومها خارج البلاد والذي حكم موريتانيا على الطريقة العربية المعاصرة منذ الثمانينات، وككل انقلابي وعد المجلس ـ مع تأجيل التنفيذ ـ باجراء انتخابات حرة يشارك فيها كل الفرقاء وديمقراطية بالمعايير الغربية (آمين) فما هوية هؤلاء الانقلابيين؟ قوميون اسلاميون ليبراليون أم لا يزال يجري تشكيل اللون المناسب؟ كيف يحكمون البلاد منذ الثالث من اب (أغسطس)؟

ما هي الضمانات التي يلوحون بها لانجاز الديمقراطية الآن؟

لِم